

المهنة في التراث السوسيولوجي

وعوامل تغير مكانتها

أ. حميدة جرو

الأستاذ الدكتور نور الدين زمام

مخبر المسألة التربوية في الجزائر- جامعة بسكرة

Abstract:

The profession is an activity and skill, which the subject has gained great importance in the sociological and economic literature, as well as psychological and educational studies that deal with the influence of the professions on the social and economic aspects of the society. The development of mental abilities and different skills.

This study seeks to present and explain the sociological heritage of the professions and study the various political, economic and social factors that affect the growth and status of the profession in society From the point of view of sociological approaches.

المخلص

المهنة نشاط ومهارة تحقق للإنسان متطلبات استمراره، وتسهم في توسيع نطاق استفادته من الموارد المتاحة، فضلا عن أنها تحدد له موقعه ضمن التدرج الاجتماعي للمجتمع.

ولهذا السبب اكتسبت أهمية كبيرة ضمن الأدبيات السوسيولوجية والاقتصادية، فضلا عن الدراسات النفسية والتربوية حيث تهتم هذه الأخيرة، فيما تهتم، بتأثير المهن على تطور القدرات الذهنية والمهارات المختلفة.

وتسعى هذه الدراسة لاستعراض التراث السوسيولوجي للمهن، ودراسة العوامل المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر في تطورهما من منظور المقاربات السوسيولوجية.

توطئة:

تعتبر المهنة من المهارات والأنشطة التي تحقق متطلبات الحياة للإنسان، وتساعد على استمراره، وتسهم في توسيع نطاق استفادته من الموارد المتاحة، فضلا عن أنها تحدد له موقعه ضمن التدرج الاجتماعي للمجتمع.

وتسعى هذه الدراسة لتناول المهن من منظور سوسولوجي، والوقوف على مختلف المقاربات التي تناولت هذه الظاهرة، وذلك لمعرفة أهميتها عمليات تطورها، ومكانتها في المجتمع.

أولاً-تعريف المهنة والحرفة والفرق بينهما:

يشير مفهوم المهنة **Profession** من ناحية اللغة إلى الخدمة، مَهْتَهُمْ: خَدَمَهُمْ، والمِهْنَةُ هي: الحذاقة في العمل ونحوه وهي العمل، والعمل يحتاج إلى خبرة ومهارة، وأصل المهنة العمل باليد؛ واصطلاحاً هي مجموعة من الأعمال تتطلب مهارات معينة يؤديها الفرد من خلال ممارسات تدريبيه؛ وقد يتسع مدلول الكلمة ليشمل أوجه النشاط الإنساني، وقد يضيق ليدل على من يقوم بعمل يدوي ويحتاج إلى مهارة يدوية (1).

وعرفها أليوت بأنها ظاهرة اجتماعية يمكن ملاحظتها ووصفها وتحليل عناصرها وتبين العوامل المختلفة التي تؤثر فيها وتعمل على نموها أو ذبولها، ويرى بأنها عمل يحتاج إلى مهارة وقواعد خاصة به (2).

وهي أيضاً وظيفة مبنية على أساس من العلم والخبرة، اختيرت اختياراً مناسباً حسب مجال العمل الخاص بها، وهي تتطلب مهارات وتخصصات معينة وبحكمها قوانين وآداب لتنظيم العمل به (3).

1 - قسطاس عبد الستار حميد، أرباب المهن والحرف في المجتمع الأندلسي خلال عصري الإمارة والخلافة (٤٢٢-١٣٨هـ/١٠٣٠-٧٥٥م ملحق خاص بالعدد (السابع عشر) كانون الأول، 2014، ص 320-322.

2 - عبد الجواد نور الدين ومصطفى متولي، مهنة التعليم في دول الخليج العربي، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، 1993، ص 28.

3 - محمد حمزة عبد الحسين الجوذري، عدنان كريم كهار الجبوري، دراسة في الواقع المهني والحرفي لسكان منطقة هور ابن نجم، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بابل، المجلد 22، العدد 2، 2014، ص 3

وقد قدم الكتاب عدة تعريفات للمهنة شملت العديد من وجوهها وشروطها ومكانتها في المجتمع، من السهل استخلاص العناصر التي تؤكد عليها هذه التعريفات:

- وهي الناحية السوسولوجية: "تمط من العلاقات الإنسانية تتفاعل مع خبرات نوعية متخصصة من العمل"⁽⁴⁾.

- وهي مجموعة النشاطات والواجبات التي يمارسها الفرد ويقدمها للمجتمع بأجر أو مرتب معين؛ وهو يتقاضى مرتباً حسب المهنة، يحظى بقدر من الاحترام والتقدير والهيبية الاجتماعية التي تحدّد مكانته وطبقته الاجتماعية؛ فما يميّز المهنة هنا أنها تحتاج إلى تدريب طويل الأمد ودراسة عملية سواء في المدارس المهنية (حتى الجامعات) أو علي يد أحد المهنيين المحترفين في مجال مهني معين⁽⁵⁾.

وهي أولاً، تمتلك معرفة متخصصة مما يؤدي إلى تحديد دقيق ومستقل لقواعد النشاط؛ ثم أنها تتطلب تكويناً فكرياً عالي المستوى (في الغالب جامعي)، مما يعني وجود مدارس أو كليات معترف بها حسب من قبل الدولة والجمهور؛ وأخيراً، تقدم المهنة خدمة مثالية مما يستدعي وضع مدونة لأخلاقيات المهنة، والمراقبة من طرف النظراء⁽⁶⁾.

⁴ - سيد عبد الحميد مرسي، سيكولوجية المهن، دار النهضة العربية، مصر، 1963، ص12.

⁵ عبد القادر القصير، الطبقة والبناء الطبقي في الريف والحضر مثال: المجتمع المغربي، دار النهضة العربية، بيروت، 1997، ص33-35.

⁶ - Bourdoncle، R. (1993). La professionnalisation des enseignants: les limites d'un mythe. Revue Française de Pédagogie, in: Stéphane Martineau, Les professions: brève présentation pour se faire une idée, http://www.cnipe.ca/IMG/pdf/Martineau-2011-Les-professions-bre_ve---.pdf.

- وهي الجهد المبذول فكرياً أو بدنياً لتحقيق منفعة دنيوية مشروعة (7)، ولكنها تختلف عن الوظيفة والحرفة فالوظيفة تقتصر على الأعمال الإدارية أو المكتبية، أما الحرفة فتكتسب من خلال الممارسة البسيطة ولا تحتاج إلى وقت طويل لتعليمها (8). إذن المهنة هي عمل يشغله الإنسان لمصلحته أو لدى الآخرين، وهي تحتاج إلى دراسة نظرية وتدريب فني طويل سواء في مدارس الخبرة أي الورش الصغيرة أو في المدارس الثانوية الصناعية أو في مدارس التدريب المهني في نظام التلمذة الصناعية، أو في الجامعة مثل مهنة الطب، وهي تمنح مكانة اجتماعية حيث تميز أنشطة الفرد داخل النسق الاجتماعي؛ وهي أيضاً نشاط نوعي يرتبط بسوق العمل بهدف إشباع الحاجات الأساسية للفرد، وتحديد وضعه الاجتماعي (9).

أما كلمة *الحرفة* Métier فهي تشير إلى الصناعة أو الصنعة التي يتكسب منها الإنسان سواء في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة، ويطلق مفهوم الحرفة اليوم "على العمل الذي يؤديه الإنسان ليحقق به دخلاً، أو على المهنة التي يزاولها ليكسب منها عيشه، أو ليرضي بها ميله وهوايته أو لينفذ أوامر ألزمته بهذا النشاط الإنساني أو ذاك" (3).

وكثيراً ما يتم التمييز بين المهنة والحرفة في اللغة الأجنبية بإسناد العمل اليدوي والتفني لهذه الأخيرة أي الحرفة، حيث يشار إلى أنها تتوفر على مجموعة من المعارف المدمجة *Savoirs incorporés*، وهي عبارة عن مهارات تتحقق بفضل التجربة والتدريب. هذا ويلاحظ بأن النشاط الفكري يلحق بالمهنة؛ فهي نشاط يتحقق بالمعرفة العالمية، خاصة بالنسبة للمهن الراقية أو العليا مثل الطب والمحاماة...¹⁰.

7 - محمد شرعي أبو زيد، أخلاقيات المهنة، جامعة الطائف كلية الآداب، 2003، ص7.

8 عبد الجواد نور الدين ومصطفى متولي، نفس المرجع، نفس الصفحة.

9 - زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع المهني، دار الفكر العربي، مصر، 1976، ص37.

¹⁰ - Enseignant : un «métier» ou une «profession» ? <http://eduveille.hypotheses.org/267>

فهي نشاط وقد تناول علماء الاجتماع هذه القضية على نطاق واسع، وأكدوا على أهمية المهنة التي تعتبر حرفة اجتماعية منظمة ومُعترف بها، فهي كما عرفها أحد رواد مدرسة شيكاغو عالم الاجتماع **أفريت هيويز** (Everett Hughes -1897-1983) "المجال الذي يُمارس فيه الفرد نشاطا متخصصا داخل النسق الاجتماعي العام، فالمهنة لا تقتصر على الأنشطة المتخصصة التي يؤديها الفرد بل تميز أنشطة الفرد داخل البناء الاجتماعي"¹¹.

2- أنواع المهن:

اهتم الكثير من العلماء بتصنيف المهن واستعراض أنواعها على نحو ما نجد عند عاطف غيث في قاموس علم الاجتماع¹²:

فهناك **مهن أولية** **occupations primary** مثل إنتاج مواد خام أو استخدامها، وهي تشمل أعمال الزراعة مثلا، والصيد والقتنص، وقطع الأخشاب، والتعدين.

إلى جانب ذلك هناك **المهن الثانوية** **occupation secondary** وهي متصلة بإنتاج سلع من صنع الإنسان، مثل تصنيع المواد الخام، وصناعة النسيج، وتصنيع المواد الغذائية، والصناعات الحرفية؛

وهناك **مهنة ثالثة** أو **خدماتية** **occupation tertiary**، التي توفر الخدمات مثل الأعمال الحكومية، والإدارية، والمواصلات والاتصال؛

وإلى جانب ذلك هناك يمكن أيضا أن نتحدث في الوقت الراهن عن **المهن الفنية العليا**: وهي المهن التي تحتاج إلى معرفة متخصصة ومهارة خاصة يمكن اكتسابها عن طريق الدراسة النظرية والممارسة التطبيقية في نفس الوقت، وغالبا ما تم هذه الدراسات داخل المعاهد المختصة أو جامعات.

¹¹ Everett Hughes, **The sociologically**, a lidding Atherton , bub Chicago, 1971, p183 in <http://elibrary.mediu.edu.my/books/2014/MEDIU5463.pdf>

¹² محمد عاطف غيث، **قاموس علم الاجتماع**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص308.

ثانيا- المهنة من منظور علم الاجتماع:

تنظر السوسيوولوجية للمهن باعتبارها غير متجانسة ليس من حيث ما تتطلب من إعداد معرفي وتكوين ومهارات تتراكم تاريخيا، ولكن من حيث قيمتها الاجتماعية والاقتصادية أيضا والمكانة الاجتماعية لمن يمتنها.

ومن الناحية التاريخية اختلفت نظرة السكان للمهن وللمشتغلين بها، من عصر إلى آخر، وأحيانا من حقبة إلى أخرى، وما يترتب عن ذلك من امتيازات، بل قد تكون النظرة سلبية تماما لأصحاب الحرف والمهن فمنذ حقب ماضية كان المجتمع البدوي العربي كما يقول علي الوردي يحتقر المهن كلّ الاحتقار، "فهم يحتقرون الحائك والحداد والصانع والصيلق والدباغ ولحلاق، وكل من يكسب رزقه بيمينه وعرقه، إنهم يعدّون ذلك دليلا على الجبن والضعف؛ فالقوي الشجاع في نظرهم يجب أن يكسب رزقه بحدّ سيفه وقوة ذراعه" (13).

ولا يقتصر احتقارهم للمهن اليدوية أو الحرف فقط فهم "قد يحتقرون المهن الفكرية أيضا" فالمعلم عندهم محتقر، وكذلك الكاتب والمنجم والمغني والعازف والطبيب" ثم ينقل الوردي عن حافظ وهبه فيقول: "إن البدو إذا أرادوا تحقير إنسان وسبّه بكلمة تكون مجمع السباب قالوا له: "يا ابن الصانع" (14).

وبغض النظر عن هذه النظرة للمهنة أو الحرفة التي عرفتها بعض المناطق فيجدر التسجيل بأنها تتميز بتجسيدها لجملة من الأبعاد والخصائص الإنسانية والمجتمعية، التي ساعدت على تطور الإنسان والمجتمع اقتصاديا وفنيا وثقافيا، وهي تسهم أيضا على تحسين تحكم الإنسان وتسخيره لمحيطه الاجتماعي والطبيعي بما يبسر له سبل العيش.

¹³ - علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، المكتبة الحيدرية، بدون تاريخ، ص54.

¹⁴ نفس المرجع، نفس الصفحة.

وقد اعتبر تايلور أن المهنة نشاط يرتبط بسوق العمل، ويشبع حاجات الفرد الأساسية، وهي تحدّد الوضع الاجتماعي للفرد⁽¹⁵⁾.

وبناء على ذلك فالمهنة هي التي تقرر درجات الاحترام والتقدير والنفوذ الذي يحصل عليه أصحابها، وبعض المهن تمنح من يزاولها شيئاً من القوة والنفوذ، مما يعني ربط المهنة بالقوة الاجتماعية، وأحياناً بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الأفراد، وقد أصبح النفوذ الاجتماعي يتحدّد في المجتمع المعاصر بطبيعة المهنة والأعمال التي يزاولها، وقد يؤثّر ذلك على اتجاهات الناس نحو مهن معينة، ويؤثّر ذلك أيضاً على اختيارات الأولياء ورغبات الطلاب؛ فيلاحظ في أن هناك ميلاً شديداً في المجتمع الخليجي إلى تفضيل العمل الحكومي والإدارة تحديداً، وذلك لما لها من مكانة مميزة ونفوذ؛ فالحاجات الأساسية المادية مشبعة نسبياً، وبالتالي تبقى الحاجة فقط إلى النفوذ والسلطة لاستكمال توفر الثروة والسلطة⁽¹⁶⁾.

وللمهنة أهمية سوسيولوجية أيضاً كما يبين علماء الاجتماع مثل أنتوني غيدنز A. Giddenz الذي كشف عند تناوله للطبقة والتراتب الاجتماعي عن أهميتها في تبوء الفرد مكانة اجتماعية، وتحديدها لوضعيته ضمن التدرج الاجتماعي كما أوضح ماكس فيبر Max Weber على وجه الخصوص، الذي تعتبر تحليلاته إضافات لمساهمات كارل ماركس في هذا الشأن، فالذين "يشتغلون المناصب الإدارية أو المهنية يحققون كسباً أكبر ويتمتعون بشروط تفضيلية في العمل على سبيل المثال أكثر من العمال المهنيين. وما يتوفرون عليه من مؤهلات مثل الشهادات العلمية

15 - كمال عبد الحميد الزيات، العمل وعلم الاجتماع المهني: الأسس النظرية والمنهجية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، جامعة القاهرة، 2002، ص 143-144.

16- فراس عباس فاضل البياتي، علم الاجتماع دراسة تحليلية للنشأة والتطور، 2012، ص 94-95

والمهارات التي اكتسبوها تجعلهم أسهل تسويقاً ممن لا يتمتعون بمثل هذه المؤهلات".
(17)

ولذلك تعتبر المهنة حسب غيدنز "واحدة من مؤشرات الطبقة الاجتماعية، ويميل الأفراد الذين يشغلون مهناً معيناً واحدة إلى تحقيقهم درجات متشابهة من النفع الاجتماعي أو حصولهم على فرص متماثلة في الحياة وإلى افتقارهم أو حرمانهم منها، وقد درج علماء الاجتماع على استخدام المخططات المهنية الطبقيّة لرسم الملامح العامّة لخريطة البنية الطبقيّة للمجتمع، ويُستفاد من هذه المخططات في تلمّس معالم اللامساواة وأنماطها، غير أنّها قد تكون عديمة النفع في مجالات أخرى".
(18)

هذا، وقد اجتهد العلماء للتمييز بين علم اجتماع العمل وعلم اجتماع المهن وفروع علم اجتماع القريبة منه مقل علم اجتماع الحرفة:

فعلم اجتماع العمل يدرس "طبيعة الشغل والخبرة التي يعايشها الفرد، وهو يتناول الأفعال (gestes) والروتين والعلاقات والمسؤولية المرتبطة بكل منصب عمل".
أما علم اجتماع الحرف Sociologie des métiers وبالإنجليزية Sociology of occupation فيهتم بالحرفة "باعتبارها تشكل كلاً، وهو يدرس علاقاتها بأنواع الشغل الأخرى؛ ويتناولها أيضاً من حيث مسارها، والجمعيات المهنية التي تميزها، وثقافتها الخاصة".

أما علم اجتماع المهن "فيدرس الظاهرة بنفس طريقة الحرف، غير أنه يؤكد على الرهان الاجتماعي المعقود عليها أو على مساهمتها الاجتماعية، وكذا الأعمال

17- أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، ط4، مركز دراسات الوحدة العربية،

بيروت، ص 349.

18- أنتوني غدنز، المرجع السابق ص 368-369

العديدة التي تمثلها، ويتناول كيف أسهمت في الدفع بظهور ميدان مستقل من الدراسة، وهو علم اجتماع المهن.⁽¹⁹⁾

وتعود لإسهامات الأول لهذا الفرع إلى أعمال إميل دوركايم Durkheim وماكس فيبر Weber وتالكوت بارسونز Parsons، وهم يعنون بالمهن المهن الحرة التي شهدت تطورا هائلا في المجتمعات الصناعية؛ ويعتبر البعض أن دوركايم هو أول من نحدث عن ذلك عندما تكلم عن دور المجموعات المهنية التي تلعب دور المنظم للحياة الاجتماعية والاقتصادية⁽²⁰⁾.

وبالفعل هو أول من قد تحليلا نظريا من وجهة نظر وظيفية أصر فيها على دور هذه المجموعات في تعزيز التماسك الاجتماعي، والحفاظ على دينامية الرابط الاجتماعي أثناء عملية التطور من التضامن الآلي إلى التضامن العضوي⁽²¹⁾.

فقد اقترح إنشاء وتشجيع الجمعيات المهنية لتقوم في إعادة الانسجام الاجتماعي الذي يهتز بسبب التقسيم الاجتماعي للعمل وتعدد النظم الاجتماعية، بحيث تشكل "هيئات وسيطة Corps intermédiaires معترف بها بين الأسرة والمجتمع تسعى لضمان التكامل والتنظيم الاجتماعيين.

ومن شأن أي جمعية من هذه الجمعيات التي تحركها روح الخدمة العامة أن تعطي لنفسها مدونة أخلاقية خاصة بها، مما يسمح بتطوير التماسك الداخلي لأعضائها الذين يخضعون لانضباط مشترك. وبهذه الطريقة تفشل الأنانية الفردية الغربية التي تظهر في المجتمعات الصناعية، ويصبح دور هذه الجمعيات حسب عالم الاجتماع الفرنسي إعادة التضامن المفقود بسبب الاضطرابات التي شهدتها عملية التصنيع في أوروبا⁽²²⁾.

¹⁹ - Bourdoncle, 1991, op, cit, p. 77-78.

²⁰ - Claude Dubar, Sociologie des groupes professionnels en France : un bilan prospectif, <http://books.openedition.org/editionsms/5723>.

²¹ - <http://les-cours-d-aes.e-monsite.com/pages/semestre-4/sociologie-des-professions.html>

²² - Martineau ; op, cit.

من جانبه أكد فيبير على الدور الهام الذي تؤديه المهن أيضا في المجتمع الغربي الحديث؛ حيث أن عملية التمهين *professionnalisation* (23)، تشير إلى الانتقال من نظام اجتماعي تقليدي إلى نظام يمنح فيه الفرد مكانته وفقا لاختصاصاته، وليس بسبب اعتبارات أخرى مثل الحق الإلهي أو غير ذلك من الامتيازات.

أما تالكوت بارسونز فقد عمق تحليلات العالمين السابقين، ضمن المنظور الوظيفي الذي تبناه، وقد بلور ما اعتبره الخصائص التي تميز المهن مقارنة بعالم الإدارة وعالم الأعمال²⁴:

- المهني يقدم خدمات شخصية لزبونه (فهو يختلف عن رجل الأعمال الذي يبيع المنتجات أو الخدمات إلى المستهلكين في سعيه لتحقيق مصلحته الشخصية) وكلاهما يتحلى بالرشد: شرعية علمية وعمومية.

- تستند السلطة المهنية إلى الكفاءة في مجال محدد وخاص "الخصوصية وظيفية" (*spécificité fonctionnelle*)

- الحيادية العاطفية *Neutralité affective* في مواجهة العاطفية *affectivité*: العلاقات الأسرية والعلاقات السياسية الدينية)

- موجهة نحو الجماعة *La collectivité*: وليست موجهة نحو الريح، أو قواعد مجهولة، ولكن من أجل إرضاء العملاء من خلال تبنيها أو تأكيدها على جملة من القيم مثل تقدم لعلم، والتطوير التقني، وتطبيق العلوم لتحقيق احتياجات الانسان.

²³ - يرجع الفضل إلى السوسولوجية الأمريكية في ابتكار هذه الكلمة خاصة أعمال بارسونز، وكان يعني في بداية صياغته، العملية التي من خلالها يتحول النشاط إلى مهنة حرة ناضجة بفضل نموذج مثالي للخدمة، كما يشير إلى ذلك برادايوز:

Paradeise (2003), see ; Richard Wittorski, la professionnalisation, Savoirs, 2008, 17, pp.11 - 38.

²⁴ - <http://les-cours-d-aes.e-monsite.com/pages/semestre-4/sociologie-des-professions.html>

قبل الحديث عن المقاربات المختلفة يجدر بنا تقديم عرض تاريخي لتطور الدراسات السوسيولوجية حول المهن كما لخصها مارتينو حيث يرى بأنها مرت بأربع مراحل أساسية (25):

1- بدأت المرحلة الأولى مع بداية القرن الماضي واستمرت إلى غاية الستينات، وقد أطلق على المرحلة التي أضفت طابعا مثاليا على المهن بالمرحلة الكلاسيكية، وهي المرحلة التي شهدت محاولات لبلورة ما يمكن أن يميز المهن عن غيرها من الأعمال أو الأشغال، وتعتبر الأطروحات الوظيفية خير مثال على هذه الفترة.

2- أما الفترة الثانية فبدأت منذ الخمسينات، حيث سعت فيها التفاعلية إلى إسماع صوتها؛ مع محاولات خفض الخطاب الذي غلبت عليه النزعة التبريرية الوظيفية نسبيا، وكانت أول المقاربات التي وضعت تحفظات على الدور المحوري الذي يجب أن يُمنح للمعرفة العلمية وروح الخدمة عند تحليل وفهم المهن.

3- أما مرحلة الستينات فتميزت بالنقد اللاذع للأطروحات الوظيفية، وازدهار الأطروحات الصراعية، التي جعلت من مسألة السلطة أو القوة الرهان الأساس للمهن؛ ولذلك يرى البعض أن هذه السوسيولوجية قد "وقعت في فخ أيديولوجي".

4- وأخيرا، ومنذ بداية العقد الموالي، انفتح علم اجتماع المهن على تساؤلات جديدة؛ وشهد هذا الحقل تطورات، كما عرف احتجاجات ضده، خاصة على مقارباته.

وقد تمّ التركيز في هذه الانتقادات أساسا على عملية بناء موضوع لهذا الحقل المعرفي: أي المهنة، ومذلك على مبررات وجوده؛ فبالنسبة للكثيرين "من علماء الاجتماع فإن ن المهن سقطت في فخ أيديولوجي، بعد أن اتخذت لنفسها صورة من يسعى لجعل المهن المنتظمة في احتكارات مهنية عاملا لفرص موضوع خاص به، وذلك بتركيزها على دعامتين أساسيتين وهما السيطرة الحصرية على معرفة خفية، وأخلاقيات الخدمة المتفانية للآخرين (26).

25 Ibid.

26 - Couture, D. (1988). Présentation. Enjeux actuels en sociologie des professions. *Sociologie et sociétés*. vol. XX. no. 2. p.5 in Martineau

وقد أدى هذا العجز في بناء موضوعها إلى إظهار علم اجتماع المهن في صورة أو على أنه عقلنة للأيديولوجية وللمنظمات المهنية، وعليه فهنا يبدو أن الخطاب العالم يوفر نوعا من التفسير والشرعنة للامتيازات المهنية (27).

وعلاوة على ذلك، فإن الدراسة الحصرية تقريبا للمهن تركت انطبعا بأنه يمكن أن تكون بمثابة نموذج لتحليل النشاطات المأجورة الأخرى؛ غير أن توسيع النموذج خارج إطاره الضيق أدى بشكل مباشر إلى ظهور مشكلة، فإضفاء الطابع المهني على أنشطة معينة واجه نزوعا اجتماعيا معمما للبقرة، التي تعمل على كبح الاستقلالية المثالية للخدمة، وهو أمر بعيد كل البعد عن تحقيق الاستقلالية وتحسين الخدمة.

لكن رغم هذه الانتقادات استمر علم الاجتماع المهن في التطور، وسعى لتنظيم خطابه، وبات موضوع المهن يحظى بالاهتمام بوصفه مشكلة سوسيولوجية وتاريخية؛ وليست المثال الذي ينبغي أن تبلغه كافة الأنشطة المدفوعة الأجر، فهي مجرد شكل من أشكال النشاط الأخرى ضمن سياق عام للتقسيم الاجتماعي للعمل.

وقد انصب الاهتمام على خصائصها الذاتية، بدل تناول العمليات التي تسمح للنشاط باحتلال هذا المركز؛ ولذلك كثيرا ما يتم تفضيل المقاربات القائمة على المقارنة: المقارنة بين مهنة في أوقات مختلفة من تاريخها؛ مقارنة نفس المهنة في اثنتين أو أكثر من المجتمعات المختلفة. وظهرت أسئلة جديدة: ما هي التوترات التي يمكن أن تعيشها هيئة مهنية؟ وكيف تتحول؟ ما هي آثار بقرة المجتمع على المهن؟

وبشكل عام، فإن حقل علم الاجتماع المهن ليس متجانسا، فهو يعرف مقاربات ليست متنافسة فحسب، بل معادية لبعضها تماما؛ ولكن مع ذلك هناك اتفاق على

27- Paradeise, C. (1988). Les professions comme marchés du travail fermés. Sociologie et sociétés. Vol. XX. no. 2. p. 9-21. In ; Martineau.

الرغبة المحورية لتحليل العلاقة المعقدة والمتشابكة بين المعرفة المقننة والممارسة، ويمكن أن نتناول بنوع من الإيجاز هذه المقاربات (28).

المقاربة الوظيفية:

تنظر هذه المقاربة للمهن إلى المهن بوصفها وحدات أساسية في المجتمعات المتقدمة، وتعتبر هي أولا وقبل كل شيء بحثا منظما وشرعيا للاعتراف بوضع تقوده مجموعة مهنية (29)، وتشير هذه العملية في أي مهنة إلى "العملية التي من خلالها يمارس الأفراد عملا، ويحاولون بقدر المستطاع تحديد وتوسيع حدود ميدان نشاطهم، أي أعمالهم وزيائنهم" (30).

ويتميز الموقف الوظيفي عن الاتجاهات الأخرى التي تناولت هذا الموضوع حسب غود وويلنسكي (Goode, 1957; Wilensky, 1964) باستناده إلى ركيترين حيث: "تشكل المهن من جهة مجموعات موحدة حول نفس القيم ونفس "أخلاقيات الخدمة"، ويتوفر الوضع المهني لهؤلاء من ناحية أخرى على "معرفة" علمية، بحيث ولا يقتصر الأمر فقط على الممارسة" (31).

وتحاول المقاربة الوظيفية حسب بوردونكل Bourdoncle بناء المهن وذلك بالانطلاق من طبيعتها وحجم أو أهمية مساهمتها الاجتماعية بحيث تبدو كأول تجربة جادة لجعل المهنة كموضوع نظري جدير بهذا الاسم؛ إضافة إلى ذلك أوضح الباحثون إضافة إلى الوظيفة الاجتماعية التنظيمية للمهن، وما تؤديه من خدمات، وبيّنوا أيضا وظيفة التنشئة الاجتماعية Fonction socialisatrice التي تؤديها لأعضائها (32).

28- Martineau ; op, cit.

29 - Martineau, op.cit. p4.

30 -Laliberté R. (1979). La professionnalisation des occupations. Une tendance à accentuer ou à renverser ? Critère. No. 25. P25, in : Martineau, op.cit.

31 - Dubar C. (1991). La socialisation. Construction des identités sociales et professionnelles. Paris. Armand Colin, p140, in : Martineau, op.cit.

32- Bourdoncle R. op, cit, p 88.

ويلاحظ أن هذه المقاربة قد كشفت بطريقة ما عن سلسلة من الخصائص، أو نموذج مثالي للمهن، يصل إلى صورته المكتملة ضمن المهن الحرة (33).

المقاربة التفاعلية الرمزية:

ظهر هذا الاتجاه البديل للوظيفية التي هيمنت على علم اجتماع المهن منذ 1930 إلى غاية 1960، منذ سنوات 1950 بفضل إسهامات "يفريت هوج" Everett Hughes الذي دشّن الحقبة الثانية لمدرسة شيكاغو، وقد اعتبر البعض أن ذلك قد شكّل ثورة سوسيولوجية (34).

تبدو المهن في المقاربة التفاعلية الرمزية مثل "مجموعة مهنية تفاوض على الأرض حول نشاط وشروطه، وحول علاقاتها مع العملاء، وهي تنتج من جهة خدمة، وايدولوجية تشرعن عبرها تفويضا Mandat تطلبه هذه المجموعة من المجتمع" (35)؛ وتشير عملية التمهين professionnalisation في هذه الحالة إلى عملية إنشاء خدمة وايدولوجية تشرعن السعي لتحقيق الاستقلالية، والاعتراف الاجتماعي بالجماعة المهنية (36).

لاحظ العلماء أن أول ما يعاب على هذا الاتجاه أنه تبني خطاب الفاعلين أي أصحاب المهن قصد إضفاء شرعية أكاديمية عليه (37). رغم أنهم تجنبوا بعناية الفخ الذي سقط فيه الوظيفيون، خاصة فيما يتعلق بتحديد طبيعة المهن. فبدل أن يُحدّد هؤلاء (التفاعليون الرمزيون) خصائص المهن مقارنة بالحرف أقاموا تحليلاتهم على مسلمة مفادها أنّها تشير إلى أيّ نشاط يعترف به المجتمع رسمياً على ما هو عليه. ولهذه المسلمة أثّرين منهجين: بداية لم يعد من الممكن دراسة المهن انطلاقاً من وظائفها الاجتماعية الكلية Macro-sociales؛ بل ينبغي توضيح وتحليل السمات

33 - S. Martineau, op.cit.

34- Florent CHAMPY & Marc-Olivier DEPLAUDE, Comment parler des professions ? Sagesse pratique, vulnérabilités et protections professionnelles, <http://www.laviedesidees.fr/Comment-parler-des-professions.html>.

35 - Perron, Lessard, Bélanger, 1993, p. 6, in: Martineau, op, cit.

36 - Martineau, op, cit.

37- Florent CHAMPY & Marc-Olivier DEPLAUDE, Comment parler des professions ?

والوظائف التي تتجح المهن في فرض شرعيتها، وتحديد المسافة بينها وبين الأنواع الأخرى من أنشطة الشغل غير المهنية(38).

وبناء على ذلك، اتخذ علماء الاجتماع التفاعليون في مسعاهم العلمي موقفا بنائيا بالأساس، حيث يرون "بأن الأفراد يشكلون واقعهم من خلال تصنيف العالم حسب إرادتهم وفرض تصورهم للوضع على الآخرين (39)؛ وساعدهم الموقف البنوي على إضفاء الطابع النسبي على الأطروحات الوظيفية؛ فمن وجهة نظرهم فما يميز المهن ليس الكثير من المعارف المتخصصة والعقلانية أو روح نكران الذات من أجل خدمة المجتمع، ولكن ما يميزها في واقع الأمر هو قدرتها على جعل المجتمع يعترف بوضعها الخاص والتميز، وهذا ما أظهره بقوة بيكر Becker (1962) وهيوز Hughes (40).

يبين الأول أن السلوك المهني الحقيقي لا يعنيه الاستجابة للمعايير التي يُفترض أنها تميزه عن بقية العاملين؛ بقصد كشف ادعاءاتها، أما الثاني فقد قارن بعض المهن المعترف بها اجتماعيا مع أنشطة أخرى التي لم يمنح لها هذا الوضع؛ فضلا عن ذلك فإن المقاربة التفاعلية لها الفضل في تسليط الضوء بوضوح على الخصائص التي تتحلى بها المهن؛ فمع حصولها على اعتراف اجتماعي معين فهي تستخدم ذلك لاحتكار التكوين وممارسة النشاط.

ويسمح هذا الوضع للمهنيين وبدون تدخل خارجي، بتحديد المعنى الاجتماعي لنشاطهم، وبالتالي ما هو مرغوب فيه أم غير ذلك لعملائها وللمجتمع بشكل عام. وكمثال على ذلك مهنة الطب التي هي الجهة الوحيدة التي يمكن أن تحدد بأن سلسلة ما من الأعراض تشكل مرضا معيناً (41).

38- Bourdoncle, R, op, cit, p89.

39 - Idem.

40- Freidson, E. (1984). *La profession médicale*. Paris. Payot. in : Martineau, Op, cit.

41- Ibid

كما سبقت الإشارة فقد تعرضت هذه المقاربة لعدة انتقادات، فمقاربتها التي تتسم بالزعة التوضيحية والايحائية أكثر منها برهانية غالبا ما تغفل الأبعاد التاريخية لعملية الاحتراف وتبقى قاصرة على الرؤية التفاعلية، وجها لوجه بين الممارس والعميل، الذي يضم هياكل السلطة الخفية لظاهرة المهن (42).

المقاربة الصراعية:

يرى الاتجاه الصراعي بأن المهن تحتل ضمن تقسين العمل المكانة الأعلى، وعليه يصبح الاحتراف (التمهين) عملية تهدف إلى أخذ أو الحفاظ على بعض السلطات لممارسة مهنة وإنتاج المعرفة التي تقوم عليها هذه الممارسة وتوظيف واعتماد أعضاء. وبهذا تُسهم المهن مباشرة في إعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية. ويلاحظ البعض أن هذه المقاربة تنقسم إلى تيارين رئيسيين: أحدهما مستوحى من ماركس Marx والآخر من فيبر Weber (43).

ورغم اختلافات الكبيرة فهما يتفقان فيا يخص المكانة التي يمنحها للتفسير التاريخي لظاهرة المهن، وتتمحور أبحاثهم على تحليل قوة المهن *pouvoir des profession*.

تتبنى هذه المقاربة تعريفا نقديا للمهن، فموضوع: "علم اجتماع المهن لا يتمثل في المفاضلة بين البذرة الجيدة والنبات السيء، ولكن في الاحاطة برهانات المكانة، والألعاب الاجتماعية التي تسمح للمتقدمين (أو المختارين) بالتفاعل مع مجموعة من الشركاء وقهرها أو حمايتها" (44).

ويتفق الصراعيون مع التفاعليين فيما يخص قولهم بأن المهن مكونات اجتماعية، وبالتالي ما يميزها عن غيرها هو الاعتراف الاجتماعي وليس صحة أو صلاحية المعرفة والمثل الأعلى للخدمة التي تقدمها. ولكنهم يؤكدون بشكل خاص

42 - Ibid.

43 - Bourdoucle, o, cit

44- Paradeise, p. 13

على أهمية "العمليات للسيطرة على السوق وعلى شروط العمل، والتي حصل عليها بفضل مجموعة اجتماعية في لحظة تاريخية معينة (45).

لنأخذ مفهوم الانغلاق الاجتماعي الذي بلوره فيبر Weber، حيث تحدث بارادايز Paradeise عن "الأسواق المغلقة للعمل" (1988)، كمواقع ورهانات للمهن تسعى عبرها إلى تنظيم ظروف السوق لصالحها في مواجهة المنافسة التي تقدمها الفئات المهنية الأخرى. ومن جانبها، أكدت سرفاتي لرسون Sarfatti Larsons (1988) من خلال التحليل التاريخي للاحتراف في الغرب والمستوحى من أطروحات فوكو على مراقبة وإنتاج المعرفة المهنية.

وفي الواقع، بعيدا عن كونها عملية تاريخية لتراكم وتحسين المعارف والكفاءات فإن المهنية هي أكثر بداية عملية سياسية لتثديد الرقابة تمارسه مجموعة المهنية على صور اشتغالها الداخلية وعلى البيئة الاجتماعية التي تعمل فيها سواء بسواء (46). وبشكل عام، فضحت التحليلات الماركسية بأطيافها الماركسية والفيبرية الطرح الوظيفي. فالمهن ليست مجالا للمعرفة العالية، حيث يتحرك أعضاؤها المفعمون بروح الخدمة في سبيل الصالح العام؛ فهي بالعكس من ذلك تتعارض مع الصالح العام، وهي من جهة أخرى تعد تعبيراً وأداة في يد الجماعة المهنية: "أصبحت المهن تاريخياً ضيقة وأكثر استراتيجية وسياسية منها علمية وإيثارية، وهي في النهاية غير راضية عن وضعها." (Bourdoncle, 1993, p. 94)

ولكن مع ذلك يمكننا أن نتساءل حول الرؤية السلبية للمهن التي تتبناها المقاربة الصراعية أساساً، من خلال التركيز على القوة، ألا تهمل بذلك حقيقة أن الحفاظ على مكانتها يجب على أي مهنة أن تثبت باستمرار أهميتها الاجتماعية لا سيما من خلال الفعالية الحقيقية للمعارف التي تتوفر عليها.

⁴⁵ Bourdoncle, op, cit.

⁴⁶ - Johnson, T.J. (1972). *Professions and Power*. London. Macmillan. 1972in Martineau.

الخاتمة:

اتضح لنا من خلال ما سبق أن قدمت المقاربات الثلاث لعلم اجتماع المهن قدمت إضاءات هامة لفهم ظواهر المهنة، ومع تباعد آرائهم بين هذه المقاربات إلا أنها تتفق على أن دراسة المهن كما يقول فريدمان ونافيل أصبحت موضوعا خاصا بالأدبيات الأنجلو ساكسونية، في حين أن أوربا الفرنكوفونية تفضل بدل ذلك علم اجتماع العمل (47).

وقد تناول علم الاجتماع البريطاني والأمريكي هذه الظاهرة في المقام الأول بوصفها مجموعة من الكفاءات ومجموعة مرجعية؛ سواء تمت هذا التناول باعتبارها تتوفر على سمات تميزها عن الحرف، أو كأداة إيديولوجية واستراتيجية ترمي إلى الاستحواذ على القوة والاعتراف الاجتماعي؛ وقد ظهرت لنا هذه المعايير الثلاثة بشكل متكررة في جميع التعريفات التي منحت لموضوع سوسيولوجية المهن. عموما يبقى هذا الفرع العلمي يسترعي انتباه العلماء، وإن كانت الكتابات التنظيرية حول الموضوع في الكتابات العربية تحتاج إلى جهود أكثر، وعلى الأقل قراءات أكثر للتراث النظري المتاح.

⁴⁷ - Friedman, G., Naville, P. (éd.) (1961-1962). *Traité de sociologie du travail*. Paris. Armand Colin. 2, vol. In ; Martineau.